ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

دور الوقف في الحركة الثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني

وموقف الاحتلال الفرنسي منه

The role of the Waqf (endowment) in the cultural movement in Algeria at the end of the Ottoman era, and the French occupation attitude towards it

صالح محمد، طالب دكتوراه، المركز الجامعي تيسمسيلت
smedhbb@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/07/17 تاريخ القبول: 2020/08/06 تاريخ النشر: 2020/09/30

الملخص باللغة العربية:

سنتطرق في بحثنا هذا لنظام الوقف بالجزائر أواخر العهد العثماني الذي بلغ شأنا كبيرا، نتيجة لعوامل عدة، والدور الذي لعبه تحت إشراف المؤسسات الوقفية التي أنشأت لتسييره، كمؤسسة الحرمين الشريفين مكة والمدينة وسبل الخيرات ومؤسسة الجامع الأعظم، والتي حظيت بمكانة عالية، وساهمت بشكل كبير في تنشيط وتطوير المجتمع الجزائري، والتأسيس لحركة ثقافية وفكرية نشطة بتفعيل دور المساجد والمدارس والزوايا في نشر العلم وتحفيظ القرآن الكريم ومحاربة مظاهر الجهل والأمية التي تكاد تنعدم في أوساط الجزائريين إلى غاية أواخر العهد العثماني.

ومع سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سارعت ألته التدميرية إلى هدم الأوقاف وتخريبها ضاربة عرض الحائط قدسيتها لدى الجزائريين، وذلك بإصدار عدة مراسيم وقرارات هدفها الحد من انتشار النظام الوقفي وإبطال دوره الفاعل داخل المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحيّة: الوقف؛ الدولة العثمانية؛ الحركة الثقافية؛ الاحتلال؛ مؤسسات الوقف.

Abstract: this topic aims to address the endowment system (Waqf) in Algeria during the late Ottoman era, which has reached a great deal

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

due to several factors, and the role that it played under the supervision of the endowment institutions that were established to run it, such as the two holy mosques Foundation, Mecca and Medina, the paths of good deeds, and the Great Mosque Foundation, which enjoyed high status, and contributed greatly to Revitalization and development of Algerian society, and the establishment of an active cultural and intellectual movement by activating the role of mosques, schools and Zawaya (coranic schools) in spreading knowledge, and fighting ignorance and illiteracy that are virtually nonexistent among Algerians until the end of the Ottoman era.

With the French occupation, the destructive machinery rushed to destroy the endowments and sabotage the wall, exposing its sanctity to the Algerians, by issuing several decrees and decisions aimed at limiting the spread of the endowment system and nullifying its active role within Algerian society.

Key words: Waqf, Ottoman Empire, cultural movement, occupation, endowment institutions

1.مقدمة:

لعب الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني دورا مهما في بناء قيم التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع، بمساهمة من المؤسسات الخيرية التي كانت تديره والتي أثبتت كفاءتها ونجاحها في ذلك، وقد شهد العهد العثماني تطورا لافتا في نظام الوقف الذي تميز بانتشاره وتنوعه وكثرته وبتشجيع من بعض حكام الدولة العثمانية عبر مختلف أقاليم الدولة في إنشاء الأوقاف وتحبيس أملاكهم، ويكفي أن نعرف أن ثلثي الأملاك في العاصمة كانت أملاكا وقفية، لنعرف فعالية هاته الأوقاف التي ظلت مصانة محمية وآثارها بارزة في مختلف مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، تساهم في نشر العلم وتشييد المدارس والمساجد والاهتمام بالطلبة والمعلمين والعلماء، بل ومراعاة شؤون الفقراء والمحتاجين.

وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية التالية:

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ما هو النظام الوقفي في الجزائر خلال فترة العهد العثماني وكيف تم التأسيس له ؟ وما مدى مساهمته في بعث الحركة الثقافية بها، وتعامل السلطات الفرنسية مع هذا النظام عشية احتلالها للجزائر ؟

2. لمحة تاريخية عن الجزائر خلال العهد العثماني:

خضعت الجزائر للحكم التركي لأكثر من ثلاثة قرون من الزمن، فقد كان دخول العثمانيين لها أساسا بطلب من أهلها"[1]، لحمايتهم من الاحتلال الاسباني الذي تعرضت له المدن الجزائرية الساحلية بداية من القرن السادس عشر فاحتلوا المرسى الكبير الذي دخلوه في 23 أكتوبر 1505 واتخذوه بوابة لاحتلال موانئ أخرى، فشنوا عدة حملات على مدينة وهران إلى أن تمكنوا من دخولها بعد محاولات يائسة في 17 ماي 1509، ثم احتلوا بجاية التابعة للحفصيين شهر جانفي 1510، وبسقوط المرسى الكبير ووهران وبجاية دانت بقية المدن للوصاية الاسبانية بعد أن وقع أعيان مدينة الجزائر برئاسة الشيخ سالم التومي[2] معاهدة الاستسلام يوم 31 جانفي 1510م، في هذا الوقت قام أعيان وعلماء مدينة بجاية وأمير قسنطينة أبوبكر الحفصي عام 1512 بالاتصال بالأخوين بربروس، حيث سار عروج فحرر جيجل 1514 واتخذ منها معقلا لتحرير بجاية التي حررها بعد حصار دام ثلاثة أشهر 1514، وكذلك فعل مع مدينة العاصمة التي دخلها 1516 واستقبل استقبالا كبيرا وعينه أهلها أميرا للجهاد[3]، إلى غاية تحرير تلمسان على يد خير الدين "استجابة لدعوة ابن زيان للتخلص من الإسبان وأبي حمو المتعاون مع الصليبيين"[4].

إن ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث بالجزائر، كان نتيجة الخطر المحدق بها من طرف الصليبيين، من الاسبان والبرتغاليين، فقد كانت الجزائر عبارة عن إمارات محلية ضعيفة ومنقسمة تعيش التناحر والضياع، فكانت إمارة سالم التومي بالجزائر وما جاورها، وسلطة الأسرة الزيانية بتلمسان بالغرب الجزائري وفي الشرق سلطة الدولة الحفصية التي تمتد حتى بسكرة وقسنطينة وبجاية.

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج1، بيروت، 1998، ص141

2 - سالم التومي: من قبيلة ثعلبة هو حاكم مدينة الجزائر، أعلن ولائه للإسبان بعقب دخلوهم جاية 1510، توفي 1516.

3 - ينظر: بغداد خلوفي، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعة أكاديمية، المركز الجامعي البيض، 2016/2015، ص ص 10 12

4 - جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر(1500-1830)، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 55

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

حيث تمكن العثمانيون من التأسيس لدولة مركزية قوية فرضت هيبتها وقوتها على الأوروبيين عن طريق سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط بفضل القائد خير الدين، "أما عن حكومة الأتراك فإن هؤلاء السكان عندما رأوا ان هذا القائد المسلم جاء لنجدة الأندلسيين ولمنع الاسبانيين من أن يقتلوهم أو يغرقوهم، استقبلوه بالعرفان والحماس وعينوا له القصبة ليتخذها مقرا، وبعد حين تكونت في مدينة الجزائر حكومة قائمة على مبادئ معتدلة وتدعو إلى التفاهم"[5]

وقد تمكن خير الدين بجهوده الكبيرة على المحافظة على الاستقرار والأمن بالجزائر، وعمل على استمالة شيوخ وعلماء الجزائر، حيث " أرسلوا كتابا عام 1518م حمله وفد من الجزائريين إلى السلطان العثماني سليم الأول يطلبون منه رغبتهم في الانضمام للدولة العثمانية مع إبقاء خير الدين قائدا عليهم، حيث رحب بالوفد ووافق على طلبهم، وأمدهم بسفن وأرسل لهم سلاحا وذخيرة وزودهم بالمدفعية، وبألفي جندي من الانكشارية، ومنح خير الدين لقب بايلر باي[6]، لتصبح الجزائر **أياله**[7] عثمانية بشكل رسمي"[8]، وقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني تنظيما حكوميا انقسم إلى أربعة عهود وأدوار هي[9]: عصر البايلربايات 1518إلى1587 وتميز باستقرار الحكم العثماني بفضل جهود الأخوين عروج وخير الدين، عصرالباشاوات1587إلى1659، وعصرالأغاوات 1659إلى1671 وعرفت فيها الجزائر اضطرابا في نظام الحكم، ثم عصر الدايات 1671إلى1830، وعرفت فيها الجزائر مقومات سياسية وتمتعت بالاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية، "فمنذ 1711 أصبحت الجزائر تتمتع باستقلال حقيقي وتأكد الطابع الشكلي للعلاقة التي تربطها بالخلافة العثمانية"[10].

5 - حمدان خوجة، المرآة، تح: محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP ، د ت، د ط، ص 70

6 - بايلر باي: يقصد به أمير الأمراء وهو لقب يمنحه السلطان العثماني لأمير الناحية مع كسوة الشرف.

7 - أيالة: مصطلح في التقسيم الإداري العثماني كانت تشكل المستوى الإداري الأول وهي بمثابة الولاية.

8 - ينظر: يحي جلال، تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999، ص99.

9 - ينظر: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ج2، ط2، الجزائر، 2009، ص17

10 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة ومطابع بدران، ج3، لبنان، 1964، ص 310

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فالجزائر ومنذ 1711 أصبحت دولة لا تربطها بالدولة العثمانية سوى رباط ديني ووازع أدبي بينما حكامها الدايات الباشوات، أصبحوا يعتبرون حلفاء للباب العالي فقط ليسوا تابعين له أو لا خاضعين لنفوذه وسيطرته.

ويسكن الجزائر طبقات مختلفة من الناس من العرب والأتراك والكراغلة[11]، "وكان سكانها في الأصل من العرب الذين فروا من اسبانيا عندما كان الإسبانيون يستعملون مضيق جبل طارق للاقتراف جريمة الإغراق إلى درجة أن عدد الضحايا بلغ ثلاثة ملايين نسمة، وفي ذلك الحين جاء الأتراك لنجدتهم"[12]

واتسم العهد العثماني في الجزائر بسياسة واضحة المعالم، إذ لم يفرضوا لغتهم، ولا حتى مذهبهم الحنفي، فقد كانت العربية لغة الدين والتعليم، واللغة التركية لغة الإدارة في غالبية الأحيان، ولم يتدخلوا في الأحوال الشخصية للجزائريين فكان هناك قاضيان مالكي وحنفي.

وقد شهدت الجزائر خلال العهد العثماني تطورا في الجانب الاقتصادي من خلال امتهان الزراعة على نطاق واسع والاعتماد على الحرف والصناعات التقليدية المتوارثة، فكانت للجزائريين طاقات فكرية وخيال خصب وأفكار منظمة كما يقول حمدان خوجة "إنهم يدركون الأمور بكيفية عجيبة ولا يصعب عليهم أي عمل يدوي كان أو آلي، أوله علاقة بالعبقرية، إنهم يصنعون مختلف الأقمشة الحريرية والمحازم، يصدرونها إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس وكامل أنحاء آسيا، ولهم كذلك معامل تصنع ألبسة المطروزة بالحرير التي تنال إعجاب الشرقيين من سكان الدول الأخرى، وبالنسبة لمعظم الحرف فإن مدينة الجزائر هي التي تزود تونس وغيرها من المدن بالعمال"[13]

وفيما يتعلق بالحياة الفكرية فيذكر أبو القاسم سعد الله "أن الدولة العثمانية لم تتدخل في توجيه الحياة الثقافية في البلدان التابعة لهم، حيث يصف الثقافة العربية في عهد الأتراك بالركود" وهي التركة التي ورثها الأتراك ممن سبقهم، زادها اهتمامهم بالنواحي العسكرية والحكم والتركيز على حماية حدود الدولة وصد الأطماع الخارجية، تاركين مسؤولية الجوانب الأخرى وخاصة الثقافية والتعليمية على عاتق العلماء والمشايخ والمواطنين، الأمر الذي كان سببا في هجرة العلماء والمشايخ منها نحو المشرق العربي والمغرب الأقصى، كما انتقل العديد من المشايخ وطلبة العلم إلى الأرياف والقرى حيث أسسوا زوايا علمية ودينية.

11 - الكراغلة: هو الأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين العرب والأتراك (أبوه تركي وأمه جزائرية)
12 - حمدان خوجة، المرآة، ص 63
13 - حمدان خوجة، المرآة، ص 67

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وباستقرار الأوضاع وازدهار الحياة الاقتصادية مع القرن السابع عشر أخذت الحياة الثقافية تدب من جديد من خلال توافد العلماء المسلمين على الجزائر، لتزدهر مع بدايات القرن الثامن عشر حيث نشأت حركة قوية في صفوف العلماء نتيجة عنايتهم بالتعليم والتأليف وهذا بتشجيع ومساهمة من بعض الحكام الأتراك من بايات الجزائر، فالحواضر الثقافية الكبرى كتلمسان وقسنطينة وبجاية بالإضافة إلى الجزائر ساهمت بشكل كبير في إثراء الحياة الثقافية بالمدن الجزائرية التي كانت مقصد الكثيرين، إلى جانب استفادة هاته المدن من تراث الأندلس المرتبط بالهجرة من الأندلس إلى المغرب إلى جانب مساهمة الرحلات في هذا التطور والتي كانت لطلب العلم أو لأداء مناسك الحج، "كما أن لوجود مراكز ثقافية وعلمية على مستوى الوطن العربي كالأزهر والزيتونة والقرويين، أثر بارز في حواضرنا ونخبتها المثقفة، سواء عن طريق الاحتكاك بخريجي هذه المعاهد عبر رحلات الحج، أو عن طريق تشجيع منها للحركة العلمية"[14]

الأمر الذي جعل العديد من الجزائريين يحافظون على حركية التعليم هاته التي بدأت تنتشر وتتوسع، وهو ما ذهب إليه حمدان خوجه بقوله: "إنّ الجزائريين يعتنون كذلك بالعلوم والآداب، ففيهم الشعراء والأدباء وأساتذة التاريخ والمشرعون"[15]

3.الأوقـــاف:

عرفت الأوقاف في الجزائر خلال فترة العهد العثماني تطورا كبيرا لم تعهده من قبل، فانتشر نظام الوقف وتوسع وتكاثر خلال هاته الحقبة عبر مختلف أنحاء البلاد، فعُرفت كتنظيم خاص لتصبح مؤسسة الوقف مؤسسة قائمة بذاتها لها أبعادها الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية، "فتزايدت الأوقاف حتى أصبحت تشكل نسبة كبيرة من الممتلكات الزراعية الحضرية من أواخر القرن 18م، ففي سنة 1750م تضاعفت عقود الأوقاف اثني عشر مرة مقارنة بنسبة 1600م، وهذا التزايد المستمر للأملاك الموقوفة خلال هذه الفترة يمثل إحدى دورات المد الوقفي في تاريخ الجزائر"[16]، والوقف باعتباره عقد لعمل خيري ذي صيغة دينية، يخضع لنظام داخلي دقيق، "حيث يقوم على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة، فالقاضي عادة هو الذي يقوم بكتابته بصيغة معينة وبحضور الواقف والشهود، مع تحديد قيمة الوقف وتعيين أغراضه وكيفية الاستفادة منه وانتقاله وعوامل نموه وتخصيص المشرفين عليه وشروطهم، مع

14 - ينظر: بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011، ص 42
15 - حمدان خوجة، المرآة، ص 67
16 - كمال منصور، الإصلاح الإداري لمؤسسات قطاع الأوقاف، دراسة حالة الجزائر، الأمانة العامة لأوقاف، الكويت، 2011، ص 273.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الشهود والقاضي"[17] حيث كانت تضطلع بدورها الكبير في تسيير المرافق ذات الصلة كالمساجد والكتاتيب والمدارس إلى جانب مساعدة الفقراء والمحتاجين والطلبة والمعلمين، وهي بذلك تُعد أهم مورد للتعليم الإسلامي والتكافل الاجتماعي.

وتؤكد سجلات الأوقاف والأحكام الشرعية أن أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي لم تتجاوز أحد عشر وقفا حتى أواخر القرن ال17م ليصبح عددها مع أواخر القرن ال18م ما يقارب 82وقفا، "ونفس الشيء عرفته أوقاف الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة التي لم تتجاوز 190 عقدا خلال الفترة الممتدة من 1540م-1750م ثم تتزايد لتصل 543 عقدا خلال الفترة الممتدة من 1752م-1841م"[18].

1.3.أنواع العقارات والأملاك الموقوفة: يتم الوقف بناء على تسجيله في عقود خاصة لدى المحاكم الشرعية تعرف باسم عقود وقفية وفق صيغة متعارف عليها في عقود التحبيس، وكما هو متعارف عليه فقد تنوعت هاته الأوقاف خلال الفترة العثمانية بصورة يصعب حصرها فمنها **الخيري**[19] ومنها **الأهلي**[20]، والأملاك الموقوفة تتمثل في:

الوقف المباشر: وتتمثل في "العقارات الوقفية التي تُوقف للانتفاع بها عينا ولا تملك واردات"[21]، وهي تلك الأموال التي تقدم مباشرة للمؤسسات الخيرية والمشرفين على عملية الوقف، كمن يوقف أموالا عينية أو غلة حقل أو غلة مجموعة من الأشجار وتقدم مباشرة للموقوف عليهم كالمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب وللطلبة والمعلمين والعلماء والفقراء والمحتاجين للتكفل بهم والقيام بشؤونهم.

الوقف الاستثماري: ويتعلق الأمر في الغالب بتلك الأوقاف العقارية كالأراضي والعقارات من حوانيت ومنازل وفنادق ومخازن وأبار مياه التي ترصد ضمن الأملاك الوقفية، حيث تدر هاته

17 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 227 228

18 - ناصر الدين سعدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص153.

19 - الوقف الخيري: وهو عكس الوقف الأهلي بحيث يقدم خدمات مباشرة لوجهات البر الذي وجهت له

20 - الوقف الأهلي: ويعرف بالذري ويكون الوقف مشروطا للواقف نفسه ومن بعده أولاده وذريته وإذا انقطعت ذريته توقف إلى جهة أو مؤسسة خيرية دينية.

21 - حسان حلاق، أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، سجلات المحكمة الشرعية، الدار الجامعية، ط2، بيروت، 1982، ص17

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

العقارات أرباحا جراء استغلالها من خلال إيجارها وكرائها طيلة العام، ويتم استغلال عائداتها فيما بعد للإنفاق على الوقف المباشر من مساجد وما شابهها.

نظام الوقف: يخضع الوقف لنظام دقيق، من أجل الحفاظ على المال العام وصرفه في موضعه، "فالباشا أو باي الإقليم هو الذي يعين الوكيل بناء على مواصفات معينة كالأخلاق الفاضلة والنزاهة والعلم والسمعة الطيبة بين الناس"[22]، وإذا كانت الأوقاف خاصة بعائلة ولي صالح فيمكن أن يتم إدارة الوقف بطريقة وراثية من الأبناء، ويمكن تغيير هذا الوكيل أو ما يعرف بالناظر والمشرف الرئيسي على الوقف، من الذين عينهم الباشا أو أبناء العائلة في حال صدرت عنه تصرفات تسيء لنظام الوقف أو الأخلاق، "فإذا اشيع عن الفساد والانحراف واستعمال الوقف في غير وجهه تدخل الباشا أو الباي لتنحيته"[23]، ووضع تحت تصرف المشرف الرئيسي على الأوقاف عدد من الأعوان يقومون على مساعدته لتسهيل عمله الوقفي كما يتقاضون رواتب نظير عملهم هذا "ويساعد هذا الوكيل جماعة من الجباة والموثقين لمع حقوق الانتفاع وتوزيعها وفقا للتراتيب قانونية، ويتقاضى العمال أجورا عن متاعبهم وأشغالهم، على الرغم من أن القوانين لا تنص على هاته الخاصية، فإن العمل قد جرى بها"[24]، ولضبط أمور الوقف يتم وضع سجلات تحت تصرف لجان خاصة مكونة من القضاة والعلماء، لمحاسبة الوكلاء كل فترة من الزمن لا تتجاوز الستة أشهر في الغالب.

2.3. أنواع المساهمين في الوقف:

تعددت منابع الوقف والمساهمين فيه خلال العهد العثماني، فقد كان الأغنياء ومتوسطي الحال في مقدمة الواقفين، إذ نجد منهم الرجال والنساء والعثماني والكرغلي والحنفي والمالكي، وحتى الباشوات والبايات، حيث يسارع الجميع إلى المساهمة في الوقف وتحبيس أملاكهم من أراضي زراعية ومنازل ودكاكين وغيرها بطيب نفس بهدف نيل الأجر والثواب، ووازعهم في ذلك كما يذكر أبو القاسم سعد الله "الحماس للدين والعلم وإصلاح المجتمع"[25] وكان للمحكمة الحنفية دور بارز في تشجيع الواهبين وحثهم عليه وتسهيل له سبل إنجازه "فالمالكيون أنفسهم،

22 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 229
23 - أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 229
24 - حمدان خوجه، المرآة، ص 239
25 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 232

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كانوا يحيلون عقودهم على تلك المحكمة(الحنفية) لتشجيع الواهبين ومساعدتهم ولمضاعفة موارد الطبقة المعوزة"[26]

ولعل البداية الرسمية للوقف على مستوى الحكم العثماني بالجزائر كانت من طرف القائد خير الدين بربروس الذي يُعتبر أقدم الواقفين العثمانيين، حين "أعتق خادمه عبد الله صفر، وقد بنى هذا الأخير الجامع المعروف بجامع سفير عام 1534م وأوقف عليه حوالي مائة هكتار من الأرض كما أوقف عليه خير الدين نفسه قطعة أرض هامة"[27]

ولم تتخلف النساء على المشاركة في الوقف، فالسيدة قمر بنت القائد محمد باي أخت خضر باشا أوقفت جامع أخيها الباشا بعد وفاته، كما خصصت السيدة حنيفة بنت مصطفى خوجة، أوقافا على الزاوية التي بناها زوجها.

لقد كانت لبعض الحكام الأتراك أياد بيضاء في تشجيع الوقف وحرصهم على بناء المساجد والمدارس وتأسيس الزوايا ومنهم الباي محمد الكبير بإقليم الغرب، الذي أمر بتوسيع رقعة التعليم ومنح جوائز لأهل العلم، مما جعل من مدينة معسكر عاصمة علمية وثقافية كبيرة، حيث "أعاد الباي محمد الكبير في معسكر مدرستين بتلمسان استولت عليها الأيدي ونسي الناس أنها أوقاف، وأعاد للمدرستين الأراضي التابعة لهما"[28]، وهو ما كان يقوم صالح باي في قسنطينة، فقد "أعاد تنظيم الأوقاف وجعلها في خدمة العلم وأنشأ مدرسة عليا متخصصة لتخريج كبار العلماء بجوار مسجد سيدي لخضر بقسنطينة سنة 1789م"[29] والتي عرفت بمدرسة الكتانية.

كما أوقف الباشا الحاج حسين ميز مورطو"أراضي ودكاكين وسوقا لجامع أسسه، وأوكل عليه مجلس إدارة"[30]، أما الداي حسن باشا فقام بتحبيس 23 عقارا من أصل 36 كانت تسيره مؤسسة سبل الخيرات وأغلب هاته العقارات حوانيت (19 حانوتا) خلال فترة (1794-1797)، أما

26 - حمدان خوجه، المرآة، ص 239

27 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 235

28 - ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 230

29 - عليوان اسعيد، أوقاف الجزائر في العهد العثماني، مجلة الإحياء، جامعة باتنة، م9، ع1، 2007، ص300

30 - ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 235

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الداي محمد بن عثمان باشا فقد أعاد بناء مسجد السيدة (قصر بشوات الجزائر) بعد تعرضه لأضرار كبيرة"[31].

وللتكفل بهاته الأوقاف التي ساهمت في تشجيع وبناء المدارس وتكريم العلماء وصيانة المساجد والمرافق العامة والإحسان إلى الفقراء والمعوزين والانفاق على رجال العلم والمدرسين والطلبة وإنشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة، عمد الحكام العثمانيون وبمشاركة الأئمة والمشايخ إلى إنشاء عدة مؤسسات تقوم على رعاية الوقف والتصرف فيه، حيث تم " إنشاء مؤسسة الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) التي تستحوذ على غالبية الأوقاف داخل وخارج مدينة الجزائر، إلى جانب مؤسسة الجامع الأعظم وتظم أغلب أوقاف المساجد المالكية تليها مؤسسة شبل الخيرات الخاصة بأوقاف المساجد الحنفية"[32].

3.3.المؤسسات الوقفية في العهد العثماني:

تنوعت المؤسسات الوقفية وتعددت بالجزائر خلال العهد العثمانيين حيث حظيت هاته المؤسسات بمكانة عالية، وساهمت بشكل كبير في بعث وترقية الحياة الثقافية والتعليمية والاجتماعية في أواخر العهد العثماني، نذكر منها مايلي:

مؤسسة الحرمين الشريفين (مكة والمدينة):

من أهم مؤسسات الوقف خلال تلك الحقبة، تقوم على شؤونها مجلس مكون من عدة أشخاص يعين على رأسهم وكيل من طرف الباشا، وكان لها انتشار في عدد من المدن الجزائرية.

وبحسب الاحصائيات فإن "مؤسسة مكة والمدينة كانت تملك في آخر العهد العثماني الأوقاف التالية: 840 منزلا، 258 دكانا، 33 مخزنا، 82 غرفة، 3حمامات، 11 كوشة، 4 مقاهي، فندق واحد، 57 بستانا، 62 ضيعة، 6 أرحية، 201 إيجار"[33]، وهي احصائيات تؤكد قوة هاته المؤسسة والأملاك التي تقوم على إدارتها والدور الكبير الذي تلعبه في التكفل بسير المدارس والمساجد وشؤون الطلبة والعلماء والفقراء والمحتاجين بالجزائر، إلى جانب دورها الخارجي وتمثيلها للجزائر في العالم الإسلامي فهي تقدم في كل موسم مع ركب الحج الجزائري الكثير من الأموال من ذهب وفضة ونقود وألبسة إلى خدام الحرمين الشرفين وإلى فقراء مكة والمدينة.

31 - أمير يوسف، الوقف والإدارة الحضرية بمدينة الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا بوزريعة، ع9، 2018، ص124

32 - ينظر محمد حاج سعيد، مساجد القصبة في العهد العثماني، أطروحة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر1، 2015/2014، ص 46

33 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 238

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

مؤسسة سبل الخيرات:

وهي من أشهر مؤسسات الوقف الجماعية أسسها "شعبان خوجه باشا" عام 1590م، وهي "مؤسسة شبه رسمية كانت تشرف على جميع الأوقاف المتعلقة بخدمة المذهب الحنفي من زوايا ومدارس ومساجد وموظفين وفقراء"[34]، كانت تتلقى الأوقاف لتصرفها لصالح الفقراء والمحتاجين والطلبة والعجزة، أنشأت تسع مساجد منها الجامع الحنفي الجديد (جامع الصيد البحري) وجامع كتشاوة وجامع علي بتشين، وبلغ عدد أوقافها 331 ملكية حبوس، كما كانت تقوم بدفع مرتبات الطلبة والملحقين بالمساجد تحت إدارتها وتقوم على شؤون عدد من الفقراء، "وتشرف على عدة من مشاريع خيرية عامة، كإصلاح الطرقات وإجراءات القنوات للري وتشييد المعاهد العلمية وشراء الكتب واوازم طلبة العلم"[35]

مؤسسة الجامع الأعظم:

هو من أقدم الجوامع بمدينة الجزائر، بلغت أوقافه قرابة 550 وقفا كانت تشمل المنازل والحوانيت والضيعات وغيرها، بلغت مساحته 2000 متر مربع، وساحة كبيرة نصبت فيها بطارية من أربع مدافع تشمل ملحقة تسمى الجينة، وبها فناء وعدد من الغرف يستغلها المفتي والعاملون بالمسجد، "وأوقاف الجامع الأعظم موزعة كمايلي: 125 منزلا، 39 حانوتا، 3 أفران، 19 بستانا، 107 إيرادا وكان المفتي المالكي هو الموكل بتسيير شؤونه، تصرف عوائده على الأئمة المدرسين والمؤذنين والمقيمين"[36]

مؤسسة أهل الأندلس:

أسس المهاجرون من الأندلس الجمعية الأندلسية عام 1623م، وهذا بتشجيع من السلطة تضامنا معهم، حيث أشرفت هاته الجمعية على إقامة مسجد وزاوية ومدرسة خاصة بهم، وبادر أغنياؤهم للوقف عليها حيث يذكر أبو القاسم سعد الله أن عدد أوقاف أهل الأندلس بلغ ستين مؤسسة وقف يشرف عليها وكيل معين من قبلهم، "وقد بلغ مدخول هذه الأوقاف عشية الاحتلال الفرنسي 5آلاف فرنك فرنسي سنويا وعدد أحباسهم بلغ 101"[37]، كما كانت لهم أوقاف مشتركة مع أوقاف الحرمين والأندلس وبينهم وبين الجامع الأعظم بالعاصمة.

34 - أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 237

35 - قميتي عفاف، الدور الاقتصادي للأوقاف في الجزائر، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، جامعة الأغواط، ع3، 2016، ص227

36 - قميتي عفاف، نفسه، ص227

37 - عليوان اسعيد، المرجع السابق، ص306

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أوقاف الأشراف:

وهو من الفئة المميزة في المجتمع بكونهم من سلالة الشرفاء، يحضون بتقدير العامة ورعاية الحكام وقد بنى لهم الداي محمد بكداش باشا[38] زاوية خاصة بهم عام 1709م، وعرفت هاته الزاوية بزاوية الأشراف، وخصصت لها أوقاف كثيرة، وهاته الأوقاف يشرف على إدارتها وكيل خاص وهو منصب إداري، فيما يتمتع الأشراف "بنقابة خاصة ونقيب يسمى بنقيب الأشراف وهو يتمتع بمكانة مرموقة لدى رجال الدولة والمجتمع"[39]

مؤسسة بيت المال:

مؤسسة وقفية تابعة للسلطة الحاكمة يشرف عليها أمين يسمى أحيانا "بيت المالجي"، ويساعد أمين بيت المال أحد القضاة، وموثقين وكاتبي ضبط مسجلين، ووظيفتها رعاية أموال اليتامى والغائبين والتكفل بالأملاك التي لم يكن لها ورثة، وكانت تشرف على إقامة المرافق العامة من طرق وجسور وتشييد أماكن العبادة من مساجد وزوايا، كما "تقوم بأعمال خيرية واجتماعية مثل دفن فقراء المسلمين وتوزيع الصدقات على حوالي مائتي فقير كل خميس"[40]

مؤسسة أوقاف الجند والثكنات:

حيث توجه مداخيل أوقافها لصرفها على الجنود وصيانة الثكنات.

ومهما كان الأمر فإن الأوقاف هي التي كانت وراء بناء المساجد للعبادة والتدريس، مثلما يؤكده أبو القاسم سعد الله[41]

4.المراكز الثقافية في العهد العثماني:

لم يجف معين النشاط العلمي في عهد الدولة العثمانية ولم تخمد حركته، رغم الجمود الفكري الذي طبع تلك الفترة بحيث انبرى العلماء والمتعلمون إلى الأخذ من معين العلوم النقلية دون العقلية، فقد شهدت المدن الجزائرية انتشارا للمعاهد والزوايا، توازيا مع انتشار المشاريع الوقفية التي ساهمت في نشر العلم والتعليم في المدن والأرياف على حد سواء، "فلم تخمد الحركة العلمية في عصر الدولة التركية ولم يقف دولاب العلم والتعليم في أي ناحية من نواحي

38 - محمد بكداش باشا: محمد بكداش باشا (1707. 1710م) فاتح مدينة وهران، عربي قرشي من كبار العلماء والأدباء قدم إلى الجزائر 1657م. وانتقل إلى بونة ولازم الشيخ قاسم بن ساسي البوني، فسمّاه محمد.

39 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 241

40 - أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 242

41 - ينظر: أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 245

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

البلاد، بل كان الكثير من فضلاء الأتراك وأعيانهم ينشطون العلم والمتعلمين بما حبسوه على تلك المشاريع من الأوقاف الغنية ذات الريع الكبير"[42]

وقد عرف الريف انتشار الكثير من المراكز الثقافية، مثلما يؤكده قول الشيخ البوعبدلي "إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى القرى، واشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر كمعاهد بني يعلى، واليلولي، واحمد بن باديس وقرومة وبني خليل وسماتة والمدية ثم معاهد الراشدية ومازونة والونشريس واليعقوبي وندرومة ونواحي تلمسان..." [43]

حيث تنوعت الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني متمثلة في سبع مراكز وهيئات ذكرها محمد بن ميمون في التحفة المرضية وهي: كتاتيب القرآن الكريم والزوايا والمساجد والمدارس والدكاكين التجارية والأندية المنزلية والمكتبات العامة والخاصة، فقد "توزعت الثقافة في هذا العهد على سبعة مراكز كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه حسبما تتطلبه ظروف العصر وتقتضيه قوانين أقليم القطر وعوائد سكانه"[44]

وذكر أبو القاسم سعد الله أن العثمانيين ساهموا في رفع التعليم برصد الأوقاف "فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها، وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان، وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباطات"[45]، حيث لعبت الأوقاف دوراه محوريا وهاما في انتشار المدارس والمساجد والكتاتيب ونشر التعليم.

فالمساجد تعد النواة الأولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية حيث لم يقتصر دورها في العبادة والصلاة فقط، بل تعداها إلى تعليم القرآن وإقامات حلقات لتدريس شتى العلوم، حيث تقام الدروس اليومية "وقد كانت مرتعا لحلقات الدروس اليومية ومحطا لفنون العلم، التي كانت

42 - توفيق المدني، تاريخ الجزائر، مطبعة العمر بيه، د.ت، د.ط، ص 94

43 - العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، ع3، قسنطينة، ماي 1980، ص60

44 - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص 58

45 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 274

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تدرس لذلك العهد، لاسيما في القرى والمدن، حيث لا زوايا تقوم بدورها في بث ما أمكنها من العلوم"[46]

وقد اشتهرت مدينة الجزائر بكثرة مساجدها، منها جامع كتشاوة ومسجد علي بتشين والجامع الأكبر وجامع صفر وجامع القصبة والجامع الجديد وجامع دار القاضي وغيرهم، ففي مدينة الجزائر مثلا "كانت تتوفر على 106 مساجد أهمها الجامع الأعظم الذي يقوم بخدمة 19 مدرسا و18 مؤذنا و8 حزابين و13 قيما، بالإضافة إلى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الأعمال به"[47]

ويذكر دوفول (DEVOULX) أنه "مع نهاية الحكم العثماني كان يوجد بمدينة الجزائر 166 مؤسسة دينية، 13 مسجدا كبيرا و109 مسجد صغير، و32 ضريحاً، و2 زاوية"، وحسب التقرير الذي قدمته الإدارة الفرنسية سنة 1836م كان يوجد 103 مسجد"[48] إلا أنّ غالبيتها كما يقول اندثرت وهدمت بفعل المستعمر، أما بقسنطينة فكان عدد أماكن العبادة والتعليم فيها يزيد عن 100 منها "75 مسجدا وجامعا بالإضافة إلى 7 مساجد تقع خراج المدينة، و17 مدراس رئيسية وفي ندرومة فيوجد عدة مساجد منها المسجد الأعظم وفي عنابة بلغ عدد مساجدها 37 مسجد أشهرها مسجد سيدي مروان، بالإضافة إلى 39 مؤسسة للتعليم و5 زوايا ثلاث منها في الريف، أما المساجد بتلمسان فبحسب ايمريت فبلغت 50 مسجدا أغلبها صغير"[49]

أما **المدارس** فهي أمكنة خصصت لإلقاء الدروس ولا توجد إلا ببعض المدن الرئيسية مثل قسنطينة والجزائر وبجاية ووهران وتلمسان التي بها مدرسة سيدي أبي مدين وكانت بهاته المدارس غرف يسكن بها الطلبة الغرباء وهي تمثل الداخليات بالمؤسسات التربوية والإقامات الجامعية عندنا اليوم.

أما الزوايا فقد ساهمت بشكل كبير في نشر العلم بالأرياف والمناطق البعيدة "وقد لعبت الزوايا دورا أساسيا في نشر الثقافة في الأرياف، فأوجدت بذلك نوعا من التوازن بين الريف والمدينة"[50]

46 - محمد بن ميمون الجزائري، المرجع السابق، ص 59
47 - بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011، ص 42
48 - أمير يوسف، المرجع السابق، ص 124
49 - توفيق المدني، المرجع السابق، ص 94
50 - مبارك الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة، ج3، الجزائر، ص 317

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وكانت **الزوايا** كما يؤكد يحي بوعزيز تعلب دورا هاما وتحتل الصدارة بين المراكز والمؤسسات الثقافية من حيث تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الشعب وكان بها طوران للتعلم الطور الابتدائي يتعلمون فيه القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والطور الثانوي ويأتي بعد الطور الابتدائي ويقوم على تدريس الفقه واللغة والنحو والعقيدة.

وإلى جانب المساجد والمدارس والزوايا نجد المكتبات حيث كانت الجزائر خلال العهد العثماني "في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، وقد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين كالفرنسيين"[51]، وكانت الكتب في الجزائر تجلب من الأندلس ومصر والحجاز وإسطنبول كما كانت تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ، ويذكر أبو القاسم سعد الله "أن الباحثين الفرنسيين كانوا مندهشين من كثيرة الكتب التي شاهدوها وقاموا بجمعها غداة الاحتلال لكثرة تنوعها والعناية بها، فيما أكد التمغروطي أن الكتب في مدينة الجزائر أوجد من غيرها في بلاد افريقية وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا"[52].

5.موقف الاحتلال الفرنسي من الوقف:

راهنت فرنسا الصليبية منذ أن وطئت قدماها أرض الجزائر على المدرسة في نشر ثقافتها، بهدف إخضاع الجزائريين وتحقيق الاحتلال الشامل، حيث شرع الاستعمار الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر في عملية مصادرة وتخريب الأراضي الوقفية والاستيلاء على العديد منها وكافة الأملاك التابعة للأوقاف كالمساجد والمكتبات التي لها قدسية خاصة بالنسبة للجزائريين، وفقا لسياستها وعقيدتها الصليبية التي انطلقت منها، وهو ما يؤكده قول الكاردينال لافيجري (Lavigerie): "إن عهد الهلال في الجزائر قد ولى وقبر، وأن عهد الصليب بدأ، وأنه يستمر إلى الأبد، وأن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها من الإنجيل"[53]، حيث عملت سلطات الاحتلال إلى تقويض مؤسسات الوقف التي كانت ذات تأثير كبير والتي تلعب دورا هاما في الحفاظ على مقومات المجتمع الإسلامي.

وأكد أبو القاسم سعد الله بأن الاستعمار الفرنسي للجزائر جاء بالسلاح والعلم، "فحققوا الاحتلال والاستعمار والاستيطان بالسلاح والجيوش، وحققوا نشر لغتهم ودينهم وعاداتهم

51 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 285
52 - أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 286
53 - حمدان خوجة، المرآة، ص74

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وصحافتهم ...بالعلم والاختراع"[54]، فيما أكد تقرير الجنرال دوكرو إلى نابيلون الثالث بالقول: "لنعرقل ما استطعنا تطور المدارس الإسلامية والزوايا...وبكلمة أوضح نسعى إلى تجريد الشعب الجزائري من السلاح المادي والمعنوي"[55] والمتمثل في المؤسسات الوقفية ودور العبادة والتعليم كالمساجد والكتاتيب والزوايا.

وقد جعلت فرنسا من هدم مؤسسات الوقف والتحكم فيه هدفا لها من أجل تركيع الشعب الجزائري وتجهيله وجعله متوحشا، وهذا ما ذهبت إليه لجنة لاسيكوتيار بالقول: "لقد وضعنا أيدينا على أموال الوقف الموجهة للصرف على التعليم والأعمال الخيرية، قضينا على مدارس كانت موجودة وشتتنا مجامع العلماء، لقد أطبق الظلام في كل مكان حللنا فيه، لقد جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر توحشا وبربرية مما كان عليه قبل أن يعرفنا"

ففرضت قوانين جائرة على أبناء الشعب الجزائري لسلبهم شخصيتهم، فكان منها قرار دي بورمون (Louis de Bourmont) الصادر يوم 8 سبتمبر 1830 أي بعد حوالين شهرين من دخول فرنسا الجزائر، والقاضي بـ"مصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها كما يستهدف حجز أملاك العثمانيين ثم أوقاف مكة والمدينة وإلحاقها بمصلحة الدومين وحدد القرار ثلاثة أيام لعملية الاستظهار وإثبات الملكية وأن السلطة ستعاقب كل من تحداها بدون انتظار"[56] وهو القرار الذي سيحرم الكثير من أبناء الأيالة من مداخيل هاته الأوقاف.

إلى جانب ضم فرنسا لكافة أوقاف الجامع الأعظم إليها والتي تتكون من 125 منزلا و39 حانوتا وأفران و19 بستانا و107 ايرادا، "ومع بداية الاحتلال استولى الجيش الفرنسي على 114 منزلا و60 مسجدا و55 بناية تابعة لأعمال البر التي تكلفت بها هذه المدينتان الشريفتان مكة المكرمة والمدينة المنورة والتي كانت تخضع لولاء الدولة العثمانية"[57] وبهاته الإجراءات تكون فرنسا قد ألغت الدور الفعال التي كانت تؤديه هاته الأوقاف داخل المجتمع، "فمعظم هذه الأوقاف قد خرجت أو ألحقت بمصالح الدولة الفرنسية بعد الاحتلال مباشرة"[58].

54 - عبد الحميد عومري، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر 1880-1914، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2017، ص26

55 - عبد الحميد عومري، المرجع نفسه، ص26

56 - حمدان خوجة، المرآة، ص74

57 - محمود باش محمد الاستيلاء على إيالة الجزائر ط2، تر: عزيز نعمان، دار الأمل الجزائر، 2005، ص 84

58 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 239

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

فإلى جانب تهديم المساجد عمدت إلى جعل بعضها الآخر ككنائس ومراكز تأوي للحيوانات "فالحكومة الفرنسية قد هدمت الكثير من المساجد...وهناك مساجد أخرى فقدت وظيفتها القديمة فأصبح مسد مسرحا وآخر مخزنا للتبن وثالث ثكنة"[59]

حيث اعتبر فاغنر(Faghnir) ما أقدمت عليه الحكومة الفرنسية أمرا لا يغتفر بقوله" هكذا اعتدت فرنسا على حرمات المسلمين، وذلك ما لن يغفره لها الجزائريون ولن ينسوه أبدا، مشيرا إلى أن عدد المدراس قبل دخول الفرنسيين كان مرتفعا، فقد بلغ حوالي 100 مدرسة، لم يبق منها اليوم سوى النصف تقريبا"[60]

وقد استمرت فرنسا في سياسة محاربة الوقف وتجفيف منابعه بحجز الأملاك ومصادرتها، دون مراعاة لحرمتها وقدسيتها لدى المسلمين، وهو ما يؤكده تقرير لجنة البحث الرسمية، التي بعث بها ملك فرنسا لاطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع بالجزائر من مظالم "إننا قد ضممنا إلى ممتلكات الدولة، سائر عقارات الأوقاف الإسلامية، ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها، وبدأنا أعمالنا في ميدان السلطة بمظلمة، ألا وهي إرغام الناس على المشاركة في قرض إجباري(مائة ألف فرنك) واستولينا على ممتلكات خاصة، دون أن ندفع مقابلها أي تعويض بل قد أجبرناهم على دفع نفقات تهديمها، كما أجبرناهم على دفع نفقات تهديم مسجد[61]، ولقد اعتدينا دون أي مراعاة على حرمة الأضرحة والزوايا والمساجد والمنازل الخاصة التي تعتبر مقدسة على المسلمين"[62] (لجنة البحث نوفمبر ديسمبر 1833)، وهي أعمال تظهر وحشية الاستعمار الفرنسي، وقد حمل سجل مذكرات مجلس الأمة الفرنسي قول "أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير أننا قد ارتكبنا في ثلاثة أشهر، من الفضائع وأعمال التنكيل، أكثر مما نُسب للأتراك خلال ثلاثمائة سنة"[63]

ورغم استمرار تدريس العلوم في مختلف المساجد والزوايا إلا أن الحالة العلمية قد لحقها ارتباك كبير بسبب سياسة الاحتلال، وهجرة العلماء وتشتت كثير من أهل القبائل والقرى، فقد ذكر ديفوكس ألبرت (Albert devoulx) في بحثه بالمجلة الإفريقية حول البنايات الدينية أن عدد

59 - أبو العيد دودو، الجزائر في عيون الرحالة الألمان (1830-1855)، المكتبة الوطنية للنشر، 1975، الجزائر، ص 33

60 - ينظر: أبو العيد دودو، المرجع نفسه، ص 33

61 - هو مسجد "**السيدة**" وكان من بدائع الفن المعماري الإسلامي في مدينة الجزائر

62 - أحمد توفيق المدني، هذي هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2001، ص ص 92 93

63 - أحمد توفيق المدني، نفسه، ص ص 93

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المؤسسات الثقافية والدينية مابين1830و1862 تناقص كثيرا فبعد أن كانت بمدينة الجزائر لوحدها 176 مؤسسة منها 122مسجدا و22زواية و32 مصلى عشية دخول الاحتلال تراجع هذا العدد إلى 47 مؤسسة فقط منها 28 مسجدا و6زوايا و13 مصلى.

إن محاربة فرنسا للمؤسسات الوقفية والتعليمية كالمساجد يعكس حالة التطور التي كان يعيشها المجتمع الجزائري قبيل احتلاله، فانتشار المدارس والمعاهد والزوايا في مختلف نواحي الجزائر خلال تلك الفترة، دليل على أن الحياة الفكرية والثقافية كانت مزدهرة بها، وهذا بشهادة العديد من الرحالة الألمان والجنود الفرنسيين وحتى جنرالاتها، حيث يقول الرحالة الألماني فيلهام شيمبر(Wilhelm Schimper1804-1878):"لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب.." [64]

فيما يؤكد من جهة أخرى على تطور الجزائري حتى في الصناعة والحرف التقليدية قائلا "بإمكان الاسكافي الأوروبي أن يذهب إلى الجزائر ليتعلم كيف تصنع الأحذية"[65]، أما الجنرال فالز(General falz) فيقول متحدثا عن سنة 1834م "إن كل العرب (الجزائريين) تقريبًا يعرفون القراءة والكتابة، حيث إن هناك مدرستين في كل قرية".

ويؤيده في ذلك الجنرال ولسن وسترهازي (WalsonWesterhazy) الذي جاء على لسانه "إن الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا في ذلك العهد أكثر من الفرنسيين الذين كانوا يقرؤون ويكتبون، إن 45 بالمئة من الفرنسيين كانوا أميين آنذاك وأن الجزائر احتلها جنود من طبقة جاهلة كل الجهل"[66].

ونفس المنحى ذهب إليه الباحث مبارك الميلي بقوله: "وقد شهد عدة فرنسيين شاهدوا الجزائر خلال فترة الاحتلال، بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر، وأن سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة والحساب كما يقول روزي"[67]، بل والأكثر من ذلك يؤكد أبو القاسم سعد الله بأن المدن الجزائرية كانت وعلى رأسها العاصمة مضرب المثل في النظافة والأمن وكثرة الحدائق وبهاء الدور ووفرة المياه، فإذا بها تصبح

64 - أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص 13
65 - أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص 19
66 - بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني، مجلة حوليات، م1، ع2، 2008، ص135
67 - ينظر مبارك الميلي، المرجع السابق، ص317

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بعد الاحتلال بسنوات قليلة مضرب المثل في الأوساخ وانتشار الأمراض المعدية والفساد الأخلاقي والفوضى وانعدام الأمن، وها هو النائب (دي صاد) يقول لزملائه في البرلمان سنة 1834 إن الجزائر كانت مليئة بالحدائق والمحلات الجميلة ولكنها الآن (أي بعد أربع سنوات) أصبحت جميعا خرائب وحتى أنابيب المياه التي تسقي المدينة قد خربت.

لقد شكل عامل الاستعمار عامل تخريب وهدم لكل مقومات الجزائر الثقافية والتعليمية والفكرية، فتعرضت مؤسساتها لمحاربة شديدة من قبل المستعمر الفرنسي بمختلف الطرق والوسائل وفي مقدمتها المؤسسات الوقفية التي كانت تقوم بوظائف هامة في المجتمع وهذا بهدف محاصرتها، في مقابل نشر لغتها وعقيدتها المسيحية، وهو ما أكده لويس ماشويل (Louis Machuel) في أن "الإدارة الاستعمارية كانت ترى في كل المدارس الإسلامية معاقل تطرف ديني فيتم تدميرها من دون حساب لنتائج ذلك"

6. الخاتمة:

عرفت الحركة الثقافية أواخر العهد العثماني بالجزائر نشاطا كبيرا بتشجيع من قبل بعض بايات الحكم الذين ساهموا بشكل أو بأخر في الدفع بعجلتها وذلك بتفعيل نظام الوقف ومساهمتهم فيه بتحبيس أملاكهم من أراضي زراعية ومنازل ودكاكين وغيرها بهدف نيل الأجر والثواب.

وقد لعبت الأوقاف دورا هاما في بعث الحركة الثقافية والتعليمية في كافة المدن الجزائرية بقسنطينة ووهران وتلمسان والمدية والجزائر من خلال تشييد المدارس والمساجد والزوايا وصيانتها ورعاية شؤون الطلبة والمدرسين والعلماء، الأمر الذي مكن من محاربة الجهل والأمية في أوساط الجزائريين، وخلق التوازن بين المدن والريف، حيث كانت نسبة الأمية ضئيلة في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي، مما جعلها هدفا من قبل الاستعمار الفرنسي، فقد كانت مشكلة التعليم من أخطر ما فكر به الاحتلال سعيا منه لضرب الجزائريين في أصالتهم بطمس الهوية الجزائرية والقضاء على الشخصية الوطنية التي تستمد قوتها من اللغة العربية والدين الإسلامي بمختلف الأساليب وبشتى الوسائل، فسارع إلى تحويل المؤسسات الدينية كالمساجد إلى كنائس وثكنات عسكرية ومخازن للسلاح واسطبلات للحيوانات و سن قوانين جائرة للاستيلاء على الأوقاف الإسلامية الذي ترتكز عليه كافة المؤسسات الدينية والتعليمية في العهد العثماني وضمها إلى إدارته والتحكم فيه وفق عقيدته الصليبية بموجب قرارت جائرة منها قرار كلوزيل (Clauzel) 1830/712 و قرار 1844.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

7.المصادر والمراجع:

المصادر:

- -حمدان خوجة، المرآة، تح: محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP ، د ت، د ط
- أبو العيد دودو، الجزائر في عيون الرحالة الألمان (1830-1855)، المكتبة الوطنية للنشر، 1975، الجزائر
- - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981

المراجع:

- -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج1، بيروت، 1998
- -جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر(1500-1830)، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010
- -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ج2، ط2، الجزائر، 2009
- -مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة ومطابع بدران، ج3، لبنان، 1964
- -أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر، مطبعة العمر بيه، د.ت، د.ط
- -يحي جلال، تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999
- -كمال منصور، الإصلاح الإداري لمؤسسات قطاع الأوقاف، دراسة حالة الجزائر، الأمانة العامة لأوقاف، الكويت، 2011
- -ناصر الدين سعدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- -حسان حلاق، أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، سجلات المحكمة الشرعية، الدار الجامعية، ط2، بيروت، 1982
- -أحمد توفيق المدني، هذي هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2001
- -محمود باش محمد الاستيلاء على إيالة الجزائر ط2، تر: عزيز نعمان، دار الأمل الجزائر، 2005

الدوريات:

- -بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011
- -عليوان اسعيد، أوقاف الجزائر في العهد العثماني، مجلة الإحياء، جامعة باتنة، م9، ع1، 2007
- -أمير يوسف، الوقف والإدارة الحضرية بمدينة الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا بوزريعة، ع9، 2018
- -قميتي عفاف، الدور الاقتصادي للأوقاف في الجزائر، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، جامعة الأغواط، ع3، 2016،
- -العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، ع3، قسنطينة، ماي 1980
- -بلقاسم عياشي، واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري، مجلة حوليات، م4، ع7، 2011
- -بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني، مجلة حوليات، م1، ع2، 2008

الرسائل والأطاريح الجامعية:

- -عبد الحميد عومري، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر1880-1914، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2017
- - محمد حاج سعيد، مساجد القصبة في العهد العثماني، أطروحة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية جامعةالجزائر1، 2015/2014